الأم الميتة

The Dead Mother

"دراسة في التحليل النفسي – أندريه جرين"

أ.د/ محمد أحمد محمود خطاب

استاذ ورئيس قسم علم النفس

مدير مركز الخدمة النفسية

بكلية الآداب – جامعة عين شمس

أندريه جرين André Green هو محلل وطبيب نفسي فرنسي، وُلد في ١٢ مارس سنة ١٩٢٧ في القاهرة بجمهورية مصر العربية، وتوفي في ٢٢ يناير ٢٠١٢ في باريس، تعلم ودرس في مدرسة الليسيه الفرنسية بالقاهرة، وسافر إلى باريس لدراسة الطب، حيث أكمل امتحانات الطب النفسي في عام ١٩٥٣ بكلية الطب في باريس، وأقام روابط مع مستشفى سانت آن، وهو مركز فريد في ذلك الوقت والذي كان ينظم لقاءات متعددة التخصصات بين الأطباء النفسيين وعلماء النفس والأنثروبولوجيا.

كما عمل أندريه جرين في كلية لندن الجامعية وحصل على وسام جوقة الشرف من رتبة فارس، وقد بدأ أندريه جرين تحليلاً لمدة أربع سنوات مع موريس بوفيت، وبعد وفاة بوفيت، أجرى تحليلاً مع جان ماليت، ولاحقًا مع كاثرين بارات، كما كان متابعًا جيدًا للمحلل والطبيب النفسي الشهير جاك لاكان لمدة ست سنوات.

وكان أندريه جرين عضو كامل في جمعية التحليل النفسي بباريس من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٨٩، كما كان نائبًا أيضًا لرئيس الجمعية البرلمانية للتحليل النفسي في الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٧، كما أصبح رئيسًا لجمعية التحليل النفسي بباريس، ومدير معهد باريس للتحليل النفسي، وشغل قسم فرويد في جامعة لندن كأستاذ كرسي فرويد التذكاري في كلية لندن الجامعية، وبالإضافة لما سبق فقد أُنتخب أندريه جرين عضوًا فخريًا في جمعية التحليل النفسي البريطانية.

ومن أهم منشورات ومقالات أندريه جرين البحثية ما يلي:

- أندريه جرين (١٩٧٥): أوريستبس وأوديب.
- أندريه جرين (١٩٨٦): الأم الميتة.
- أندريه جرين (١٩٩٧): حدس السلبي في اللعب والواقع.
- أندريه جرين (١٩٩٨): العقل البدائي وعمل السلبي.
- أندريه جرين (٢٠٠٠): الموت الرهابي المركزي.
- أندريه جرين (٢٠٠٤): مفاهيم الثالثة والتحليل النفسي.

ومن أهم منشورات ومقالات أندريه جرين البحثية ما يلي:

- أندريه جرين (١٩٨٦): الجنون الخاص.
- أندريه جرين (١٩٩٩): نسيج التأثير في خطاب التحليل النفسي.
- أندريه جرين (٢٠٠١): نرجسية الحياة، نرجسية الموت.
- أندريه جرين (٢٠٠٢): الوقت في التحليل النفسي.
- أندريه جرين (٢٠١١): أوهام وخيبات عمل التحليل النفسي.
- أندريه جرين (٢٠١١): التأثير المأساوي: عقدة أوديب في المأساة.
- أندريه جرين ، كوهن. ج (٢٠٠٥): الحب وتقلباته.

وعادة ما كان يتخلل كتابات أندريه جرين خيطان: من ناحية، أهمية الأب المستمدة من عمل جاك لاكان، ومن ناحية أخرى، الاهتمام بالأمومة المرتبط بطرق مختلفة بعمل دونالد وينيكوت، وبيون.

وعلى مدار حياته، أجرى أندريه جرين حوارًا بارعًا وأكاديميًا مع الفلاسفة والعلماء، وخاصة علماء الأنثروبولوجيا، ولذا فهناك دومًا العديد من جواهر التفكير التي يمكن العثور عليها في أعمال أندريه جرين مثل الصلة بين متعة الحياة وعودة المكبوت، أو ظاهر التشييء (الصدى الرجعي – البشارة الاستباقية) في الاستماع التحليلي.

ومن ثم تتركز الموضوعات الرئيسية في عمله على نظرية التأثيرات، نظرية التمثيل واللغة، عمل السلبي، مع كوكبة من المفاهيم مثل: الأم الميتة، نرجسية الموت، الذهان الأبيض، الهلوسة السلبية، النرجسية والحالات الحدودية، والوظائف الموضوعية، والثالثة،

والنظرية الميتابسيكولوجية للزمانية، بالإضافة إلى ذلك أنتج مجموعة من الأعمال في التحليل النفسي التطبيقي.

وفي عام ١٩٧٥، صرح أندريه جرين: الشيء التحليلي ليس داخليًا (بالنسبة للمحلل النفسي أو الشخص الذي يتم تحليله)، ولا خارجيًا (لأحدهما أو للآخر)، ولكنه "يقع بينهما"، في الجلسة يكون الكائن التحليلي مثل كائن ثالث، نتاج اجتماع المحلل النفسي، والشخص الذي يتم تحليله.

أما عن تطور ورقة أندريه جرين عن الأم الميتة The dead mother، حيث تصف هذه الورقة البحثية قيمة الأم المتوفاة لمجالات أخرى ذات أهمية إكلينيكية: الواقع النفسي – (وكما نعلم وكما أكد شكسبير أن الواقع النفسي لهو أشد إيلامًا من الواقع الموضوعي) –، والظواهر الحدودية، والعواطف، وتحديد الهوية.

حيث يصف مفهوم "الأم الميتة" ظاهرة إكلينيكية، يصعب تحديدها أحيانًا، ولكنها موجودة دائمًا في عدد كبير من المرضى، حيث يصف أندريه جرين العملية التي يتم من خلالها تحويل صورة الأم الحية والمحبة إلى شخصية بعيدة؛ ووالد ميت عديم النبرة غير حي عمليًا. في الواقع تظل الأم على قيد الحياة، لكنها ماتت سيكولوجيًا من أجل طفل، وينتج عن هذا اكتئاب لدى الطفل الذي يحمل هذه المشاعر بداخله إلى حياة النضوج، حيث أن تجربة فقدان حب الأم يتبعها فقدان معنى الحياة، ومن ثم فلم يعد هناك شيء منطقي بالنسبة للطفل، ولكن يبدو أن الحياة تستمر في ظل مظهر الحياة الطبيعية.

فبالرغم من أن الأم مازالت على قيد الحياة، وبالرغم من وجودها الجسدي الفيزيقي إلا أنها ميتة سيكولوجيًا غير مؤثرة في نفسية الطفل، رافضة له تتحاشاه بكل المستويات وهو ما يؤدي إلى إصابة الطفل لاحقًا بالعديد من الأمراض والاضطرابات النفسية كالاكتئاب أو الانتحار، وهو الأمر الذي أكده دومًا "دونالد وينيكوت" في أنه لا توجد أمهات جيدات بما فيه الكفاية، وهو ذات الأمر عندما وصفت ميلاني كلاين في علاقة الطفل بالموضوع من خلال الثدي الجيد، والثدي الرديء أو الشرير ... وبناءً عليه فلا يوجد أبناء مضطربون بل يوجد أباء مضطربون عاجزون عن منح الطفل حبًا نقيًا غير مشروط، وتقبل غير مشروط،

بالإضافة لمنح الطفل الاهتمام والتقدير الكافيان، واحتواء الطفل من خلال حضن الأم ولمسه وخاصة أن الجلد يمثل أو يكون بمثابة الغلاف النفسي للطفل والذي يساعد بدوره على تكوين الأنا الجلدية، فعدم لمس الطفل أو عدم حضـــنه عادة ما يتعرض لاحقًا لأمراض نفســـية كالاكتئاب، أو للإصـابة بالأمراض السيكوسوماتك (أمراض جسدية راجعة لأسباب نفسية) مثل الأمراض الجلدية بأنواعها، ومثل القرح الجلدية، والاكزيمات والصدفية وغيرها بالإضـافة للقولون العصبي واضطرابات المعدة، ... وغيرها.

فالحب وكما يؤكد أفلاطون هو "المطلع من اللاوجود إلى الوجود" ، فقد يتواجد الأباء وخاصـة الأم فيزيقيًا وجسـديًا، ولكنهم موتى نفسـيًا في نظر الطفل، فالصـحة النفسـية للطفل تتمثل في القدرة على الحب واللعب؛ فعدم حصـــول الطفل على الحب الكافي يؤدي لخيبة أمل وجرح نرجسـي لا يندمل، حيث يشـعر الطفل أنه مرفوض وغير مرغوب فيه وأنه لا يســتحق الحب لأنه غير جدير به، ومن ثم يصـــاب بالاكتئاب عاجز عن حب ذاته بل يسعى لتدميرها لا شعوريًا، وعاجز أيضًا أن يحب الآخرين.

وقد يلعب الأب أيضًا دورًا في تكوين متلازمة الأم الميتة، وخاصـة إذا ما علمنا أن الرجال والنسـاء دون وعي منهم يختارون بعضـهم البعض بنفس الدرجة تقريبًا على المسـتوى السيكولوجي فهو في النهاية اختيار لا شـعوري لإشـباع ما لم يتم إشـباعه في الطفولة سـواءً أكان ذلك على المستويين الجنسي أو العدواني أو كلاهما معًا.

ويوضـــح أندريه جرين الفرق بين متلازمة الأم الميتة، ومصـــطلح عقدة الأم الميتة كما يلي:

أ- متلازمة الأم الميتة:

عادة ما يتم استخدامها للإشارة إلى متلازمة إكلينيكية مرضية شديدة، وصفها جرين عند وجود توحد أولي مع الأم الميتة انفصـــاليًا وانفعاليًا، ومن ثم فإن هذه المتلازمة تشـــير لمرض نفسي شديد وقد يكون نادر تمامًا.

فمتلازمة الأم الميتة مناظرة مجازيًا للحداد، وأن المريض يستجيب ليس لفقدان الأم، بل لحرمانه منها، ومن ثم يعجز على أن يحب.

ب- عقدة الأم الميتة:

فهي ترمز لمجموعة كاملة من استجابة الفرد للأم الغائبة انفعاليًا، والمكتئبة بصورة مزمنة. كما تعتبر اســـتجابة الطفل لأم غائبة انفعاليًا تصـــور أهمية عملية انتقائية لا إرادية داخل الفرد بوصفها استجابة للصدمة.

ومن ثم فإن كلاً من متلازمة الأم الميتة، وعقدة الأم الميتة ما هي إلا استجابات لا يمكن الشك فيها لموت الأم انفعاليًا، لكن التوحد الأولي مع الأم هو فقط أحد البدائل العديدة، بينما يعد التوحد الكلي مع موت الأم وجدانيًا وانفعاليًا هو أسوأ النتائج المرضية.

فجوهر الحب الذي اســـتثمرت به الأم أمام حزنها واكتئابها: نظرتها ونبرة صـــوتها ورائحتها وذاكرة عاطفتها، فقدان الاتصال الجسدي تم دفنها على قيد الحياة لكن قبرها اختفى،

وهو ما يؤدي بالطفل إلى الشعور بالعجز: العجز عن الخروج من حالة الصراع، أو العجز عن الحب، أو عدم الرضا.

وهو الأمر الذي يساعدنا في كيفية تفسير هذا الموقف الواضح والذي يكمن في الخيال من مصاص دماء القلوب، حيث يقضي المريض حياته وهو يطعم أمه الميتة. كما لو كان الوحيد الذي يمكن أن يعتني بها، حيث اكتشف المريض أنه قضى حياته كحارس للمومياء، حارس المقبرة، المالك الوحيد لمفتاح سردابها، يؤدي وظيفته سرًا كوالد تمريض، يحمل أمه الميتة في الأسر وتصبح من ممتلكاته الشخصية حيث أصبحت الأم طفل الطفل.

ومن هنا تبرز مفارقة مهمة ألا وهي: الأم قيمة في أنها لم تكن متوفرة، دع جسدها يكون معه، قذيفة بلا روح، ولكن دعها تكون ميتة لأنها في حال استيقاظها فسوف يفقدها للأبد ولذا لابد أن يكون في حالة حداد دائم على فقدانها، ومن ثم لا يستطيع منحها أو إعطاءها الحب، لذلك نتعامل مع موضوع أُجبر على الاختيار بين خسارتين: بين الموت في وجود الأم أو الحياة في غيابها، وبالتالي التناقض الشديد للرغبة في إعادة الأم إلى الحياة، حيث الخوف من الخسارة المتكررة.

فيخشى المريض ويخاف من البقاء على قيد الحياة، ويخاف من اليأس الذي قد يظهر في أي لحظة، هذا اليأس يرجع إلى حقيقة أن المريض لا يستطيع القيام بعمل حزن من المستحيل فيه رفض الحزن، وبالتالي يُفسر "سفاح القربى" مع الأم "لا أريد التخلي عن حبها"، ومن ثم الإقبال على زنا المحارم.

وبناءً على ما سبق لا تنشأ عقدة أو متلازمة الأم الميتة بسبب الخسارة الحقيقية للأم، فالأم الميتة هي أم لا تزال على قيد الحياة، لكنها ماتت عقليًا وسيكولوجيًا؛ فالأم الميتة هي في الواقع أم حية، لأنها أصيبت بالاكتئاب سواءً بسبب وفاة طفل، أو قريب، أو صديق مقرب، وهكذا ولسبب أو لآخر تم تسليط الضوء على ظاهرة الأم الميتة، وتم تسميتها ودراستها من قبل المحلل والطبيب النفسي الشهير أندريه جرين كتقرير فرنسي، ثم تقديم مقال نشره في جمعية التحليل النفسي بباريس في ٢٠ مايو ١٩٨٠.

ويرى أندريه جرين أن الأم الميتة القاتلة لسيكولوجية الطفل ولنموه النفسي السوي هي التي تلحق الضرر أكثر من الأم الميتة جسديًا فقط. فالأم الميتة انفعاليًا هي أم قلقة بشأن طفلها أو من خلال علاقة تكافلية ذات طابع مرضي؛ وبالتالي فإن جوهر الأم الميتة

ليس في سلوكها فحسب، بل في موقفها الباطن الخفي تجاه الطفل والذي يمكن أن يعبر عن نفسه في كل من السلوك المدمر وفي شكل رعاية خانقة مميتة ومدمرة لسيكولوجية الطفل.

فالعداء الأساسي القاتل للأم ضد طفلها هو صراع هذه الأم مع والدتها، هذا صراع بين الأجيال من خلال ميكانيزم التوحد بالمعتدي فمثلما فعلت الأم مع ابنتها فإن هذه الابنة مستقبلاً وعندما تصبح أم فإنها سوف تعيد إنتاج وتكرار لا شعوريًا مع فعلتها بها أمها مع طفلها، ومن ثم فهي ليست أم ميتة فحسب بل أم قاتلة ويظهر اكتئابها ما بعد الولادة.

ولهذا سنتكلم هنا عن نوعين من الاكتئاب، وهما ما يلي:

أ- اكتئاب الطرح Transference depression:

الطرح نفسه يكشف عن اكتئاب الطرح، والذي هو تكرار لاكتئاب طفولي تميز بعناصر نرجسية يتم التعبير عنها داخل علاقة الطرح، عادة بعد سنوات عديدة من التحليل، وأعراضه تكون لا نمطية في سلسلة اضطراب الاكتئاب، والصعوبات الناشئة بسبب النرجسية تتعلق بالمطالب الكبيرة التي تتم بواسطة الأنا المثالية فضلاً عن مشاعر العجز والسخط.

وأندريه جرين A. Green الذي بنى عمله على أعمال وينيكوت، وصف بعض الأسباب الأكثر بروزًا لهذا الاكتئاب الطفولي في "الأم الميتة" أنها غالبًا نتيجة الأم التي تسحب بطريقة وحشية استثمارها الانفعالي في الطفل بسبب حالة الحداد قبل ولادة الطفل وبعدها، غالبًا بسبب وفاة طفل آخر، أو قريب مقرب منها، أو بسبب جرح نرجسي شديد آخر.

وتشمل الحالة الأخطر وفاة كل طفل صغير لها. ينتج عن ذلك تغير عميق في الصورة الذهنية للأم، وتلك التي تتشكل في نفس الطفل "تحول موحش تجاه الموضوع الداخلي، وهو مصدر الحيوية إلى شخصية بعيدة شبه حية تؤثر على مصير النمو اللبيدي النرجسي. هذه الصدمة النرجسية التي يعانيها الطفل بوصفها كارثة، تجلب معها ليس فقط فقدان الحب وأيضًا فقدان المعنى، لأن الطفل لا يكون قد اكتسب فهمًا أو تفسيرًا لما حدث.

ونتيجة هذه الكارثة هي نزع الشحنة النفسية من الموضوع الأموي والتكوين داخل النفس لمنطقة كاملة من الثقوب، وكذلك التوحد في المرآة مع "الأم الميتة" مما يؤدي إلى

تكون مرض داخل الطفل يهدف إلى إعادة الأم للحياة تخيليًا. أخيرًا، فإن فقدان المعنى الذي يشعر به الطفل يبني النمو المبكر لأخيلة أناه، وقدراته الذهنية، وهو نمو لا يحدث في سياق حرية التخيل والخلق لكن كتفكير قهري.

والعلاقة المتناقضة لساندرو فرينزي مع فرويد زودت تصويرًا كفؤًا لهذه الفكرة وشعور فرينزي أثناء خضوعه للتحليل مع فرويد يعتبر مظهر من مظاهر لاكتئاب الطرح، وتكرار اكتئاب الطفولة الذي لم يعالج.

واكتئاب الطرح المعبر عنه عن طريق ظهور نداء شبقي الصبغة موجه للمحل تميز باكتئاب أساسي لم يعالج نفسيًا، وخلف الطلب الزائد للحب والتعويض يوجد نقصًا واضحًا في حالات طرح الحب، هناك غالبًا يوجد نقصًا وفشلاً في البيئة الأولية، والطرح بالتالي يكون شبقيًا كدفاع ضد الخوف من الانهيار، المرتبط بالاكتئاب الأولي الذي يشعر به هؤلاء المرضى في المرحلة الأقدم من نموهم، وفي تفاعلاتهم مع المحل يحيون من جديد بأسهم وكربهم، وكذلك نقائصهم في الترميز الأولي، والطلب الشبقي الصيغة يعتبر بالتالي محاولة لإعادة الارتباط في مواجهة مشاعر الألم الشديدة ومشاعر الخواء ونقصًا في وظيفة الترميز.

إذًا فعقدة الأم الميتة كما وصفها أندريه جرين في عام ١٩٨٠، تظهر أدلة وجودها أثناء الطرح، لذا غالبًا لا يمكن التعرف عليها عند طلب التحليل للمرة الأولى. وتظهر بوجه خاص بواسطة "كبت الطرح"، وتكرار اكتئاب طفولي لا يكون غالبًا قادرًا على أن يُستدعى. والخاصية الجوهرية لهذا الكبت هي أنه يحدث في وجود موضوع يستوعب هو نفسه في الحداد.

وأسباب هذا الحداد قد تكون عديدة – كما ذكرنا سابقًا – ولا يعترف بها الموضوع الأموي، لذلك فإنها في الغالب مستنتجة من خلال التحليل بشكل أو بآخر من اليقين.

والنتيجة الرئيسية القابلة للملاحظة على مستوى الطرح المضاد هي الاستبصار في "مشاعر باردة" صعبة في لب الطرح، وهذه هي نتيجة لتصريف شحنات نفسية أموية وحشية يكون الطفل غير قادر على فهمها والتي تقلب عالمه النفسي رأسًا على عقب. بعد محاولات فاشلة للتعويض تصبح مشاعر العجز النفسي هي السائدة.

ودفاعات عقدة الأم الميتة حينئذ تقام والتي تشـــارك في التمثيل الرآوي لتفكيك الاســتثمار في الموضــوع الأموي بتوحد لا شــعوري مع الأم الميتة. ونتيجة ذلك هو ظهور القاتل النفســي للموضــوع والذي يحدث بدون أي كراهية. والابتلاء الأموي يحظر حدوث أي تعبير عدواني قد يجازف بدعم الانفصـــال الأموي من ناحية، فإن نمط علاقات الموضـــوع يخترق، ومن ناحية أخرى فإن الشـــحنات الهامشـــية تتعلق بحافة هذه الثغرة، ومن ثم فإن التدميرية الصـامتة لا تتيح للموضـوع إعادة إنشـاء علاقة بالموضـوع قادرة على التغلب على الصـــراع وفتح الطريق لإقامة ارتباطات قد تعززه، أو تكيفات تخدم فقط لدرع يمنع الوصـــول إلى لب الصراع.

والشـــيء الوحيد الذي يسـتمر هو ألم النفس الكئيبة والتي تتميز بوجه خاص بعجز عن الاستثمار مع أي موضـوع له صـلة بالوجدانات. والكراهية مسـتحيلة كالحب، ويسـتحيل استقبالها بدون مشاعر الاضطرار للتراجع، لكي لا تدين لأي شيء حتى اللذة المازوخية.

والأم الميتة تكون مطلقة القدرة، لكن بدون أن تمثل، وليبدو أنها تســـتحوذ على الشخص وتجعله أسيرًا لحداده عليها.

هذه الصـورة الإكلينيكية تتطور مقابل خلفية من عجز الطفل عن اسـتيعاب أسـبابه والمقاييس المهمة للاكتئاب الطفولي هي فقدان المعنى ومشـــاعر العجز عن اصـــطلاح الموضـــوع للحداد، وإيقاظ الرغبة المفقودة، أحيانًا في الترشـيدات المهمة تحل محل مصـــدر الصـــراع في العالم الخارجي، وتصـــبح رغبة الأم غير ممكن الوصـــول إليها مقارنة بما يعتقد الطفل أنه لاحظه.

الطفل يلوم حينذاك فشـل القدرة الذاتية في العلاقات، مما يؤدي بواسـطة التعويض إلى تعزيز القدرة المطلقة في مجالات أقل ارتباطًا بالموضوع الأولي.

والتحليل الأوديبي للتثبيات قبل التناسـلية ومشـاعر الذنب اللاشـعورية لا تكون لها فائدة في إيجاد طريق للمرور من هذا الموقف، ولأن الأم لا يمكن التعرف عليها مباشـــرة في كلام المريض، ذلك أنها تظهر فقط بقدر نجاح الموقف التحليلي في استخلاص أدلة وجودها

الصـــامت بدون القدرة على العثور عليها في هذا الغياب، رغم أن العلامات غير المباشـــرة لغيابها تكون غائبة.

والكبت يمحو أثر الذاكرة للاتصـــال بها، واســـتثمار الطفل فيها قبل حدوث حداده عليها، والذي يضـــع نهاية فجائية لهذه العلاقة المنسـية. هذا الكبت يعدو إلى دفنها حية، بل هدم كل شـيء، بما في ذلك المقرة التي تميز وجودها في الماضـي. ورأى أتباع وينيكوت أنها في هذا الموقف، لأن الموضـــوع تم التحفظ عليه بلا أثر له، وغياب لكل نقاط الإشـــارة ذات المغزى. لا يمكن توكيده بشدة، لأن تعديل الاتجاه للأم يبدو غير قابل للتفسير، ويؤدي بدوره لكل أنواع الأســئلة التي تثير مشـــاعر الذنب، وهذه بدورها تتفاقم بواســطة الدفاعات الثانوية وتُزاح إلى عناصر أُلحقت لهذا الغرض.

في الواقع أن محاولات إعاقة المشـــكلات التي لا يتحكم فيها الكبت لهذا الموقف غير القابل للمعالجة يحفز ظهور بعض ردود الأفعال المهمة، وأعراضها هي كما يلي:

١- الحفاظ على الأنا على قيد الحياة عن طريق الكراهية الثانوية للموضـــوع، وبواســـطة البحث المحموم عن اللذة دون قابليتها للإشـــباع، أو عن طريق البحث الطويل عن معنى محتمل للإزاحات التي تمت.

٢- إحياء الأم الميتة، والاهتمام بها، وإغوائها، وإضـــفاء معنى الحياة عليها بأي وســـيلة ممكنة بما فيها الوسائل الاصطناعية والسرور بكونها حية.

٣- التنافس مع موضوع الحداد في الثليث القبشعوري.

إن عقدة الأم الميتة بوصـفها عنصـرًا قويًا كثيفًا، تجذب إليها مكونات أخرى للحياة النفسية، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظمها المهمة، نتيجة لذلك فإن أخيلة المشهد البدائي (الجماع) تحاول صـبغ علاقات تنافسـية مع الموضـوع المفترض للحداد الفجائي وإعادة إيقاظ ألم كونها مستثمرة بواسطة إلقاء الضوء على أي تذكارات للمشهد البدائي، عن طريق توحد إسقاطي.

وبالتالي تُغلف الكارثة وتثأر من الموضـــوع الأموي والذي يتحول بين اللامبالاة والذعر. إن ذلك غالبًا هو الحال أن يكون الأب هو موضـوع الاستثمار القبشـعوري في عقدة أوديب الذي يتم الاندفاع إليه في هذه المناسبة، لكن يفتقر إلى خصاله العادية.

هذا الشكل المتغير من العقدة يجلب معه ليس الكثير من قلق الخصاء بل مشاعر سورة غضب الأنا، والشلل والعجز مقابل العنف الذي يتلو ضد المنافس المفترض، والنتيجة غالبًا تكون مشاعر مكثفة بالخواء، وتكرار وتضخيم الآثار الضارة في لب الصراع.

وبناءً على هذه الملاحظات الإكلينيكية، افترض أندريه جرين مصير الموضوع الأولي لبناء تأطيري للأنا، وإخفاء هلوسة سلبية للأم. وعقدة الأم الميتة تظهر فشل هذه العملية وتشوه طريق صورها إلى فراغ أليم، وإعاقة قدرتها على الارتباط معًا في أي نمط تفكيري قبشعوري. وهذه العقدة هي تضاد لعقدة الخصاء "الساخنة" وترتبط بتقلبات العلاقات بالموضوع، والتي يمكن أن تهدد من البتر إلى قلق بارد يرتبط بفقدانات يتم المعاناة منها على المستوى النرجسي (هلاوس سلبية، ذهان مسطح، حداد كئيب) مما ينتج عنه علاج إكلينيكي للسلبية.

وقد ينتج عن عقدة الأم الميتة اتجاه الأبناء إلى إدمان المواد المخدرة مثل الكوكايين، ولهذا درس التحليل النفسي الديناميات المهمة والأخيلة اللاشعورية التي تدفع المرضى إلى البحث عن الآثار الكيميائية والفسيولوجية للكوكايين بطريقة قهرية.

ولهذا فإن تصنيف الهياكل المرضية المؤكدة على إدمان الكوكايين يبدو أنه يُشير إلى أن عملية الحداد المرضي أو السلوك الهوسي الاكتئابي يمكن أن يوجد لدى العديد من المرضى. ويبحث المرضى أحيانًا على هذه المادة السامة كمنبه أو مضاد اكتئاب من أجل إخفاء حالات الاكتئاب.

وبعض مدمني المخدرات عاجزين عن العمل من خلال حزنهم لتطوير حداد مرضي فيه يتوحدون مع الموضوع (الموضوعات أو الأمهات) الميتة، وبالتالي لا شعوريًا يضعون حياتهم في خطر جسيم، وتعاطيهم المتكرر الخطر يتيح لهم الشعور كما لو كانوا يقهرون الموت وأنهم سيفيقون من حالة الإغماء.

ولهذا تمثل أخيلة الإفاقة هذه نجاحًا لدى هؤلاء المدمنين، حيث الأفكار النفسية عن الخطر والموت والانتحار لا توجد، ولذلك فإن تفسير التحليل النفسي لابد أن يتوجه إلى

الكشف عن وتفسير أخيلة البحث وبالتالي الإقلاع عن العيش داخل الموضوع (الأم) الميت، أو التوحد معه.

ب- اكتئاب ما بعد الولادة Postnatal Depression:

وهي حالة من الاكتئاب تصيب الأم بعد ولادتها لطفل، والأعراض تكون الاكتئاب، القلق، ونقص الاهتمام بالرضيع ومشاعر عدم الملائمة وعدم الكفاءة كأم، وهذه الحالة تحدث بين ١٠: ١٥% من الأمهات بعد الولادة، وتستمر عادة ما بين (٦) شهور إلى عام أو أكثر، وتسبب نقصًا في التناغم لدى الأم والطفل، ويمكن أن تؤدي إلى مشكلات نمو نفسي وجسمي مبكرة للرضيع، ولهذا يصاب الجنين عادة بالاكتئاب داخل رحم الأم، لأن الحبل السري السيكولوجي بين الأم والطفل يوصل مشاعر الرفض والكره للجنين وعدم الحب لأن الأم المكتئبة لا تستطيع منح الحب سواءً لنفسها أو للآخرين. وهو ما سيؤدي لاحقًا إلى تكوين الذات الزائفة False-self كما يؤكد وينيكوت بقوله: أنه لا يوجد أمهات جيدات بما فيه الكفاية.

وهو ما أكدته أيضًا "مرجريت ماهلر" في تميزها بوضوح بين الولادة النفسية، والولادة البيولوجية، وكتبت أن هذين النوعين من الولادة ليستا متزامنتين. فالأولى: الولادة النفسية درامية قابلة للملاحظة، والثانية: الولادة البيولوجية تكشف ببطء عن عمليات داخل النفس.

ولذا فإن الأم غير الجيدة بما فيه الكفاية لا يمكن أن تستجيب بطريقة حساسة وتوكيدية، وتفشل في تلبية إيماءات الرضيع، وأثناء تكيف الرضيع حتى هذه النقطة، وسد ثغرة الهلوسة، فإن هذا الميكانيزم يفشل ويفقد الطفل الاتصال بحاجاته، والاستجابة بتطرف للبيئة، ويصبح معتمدًا على الآخرين، ومصدومًا وعاجزًا عن استخدام الرموز عند هذه النقطة يتم إغواء الرضيع للامتثال، وتطوير "ذات زائفة" تتفاعل مع مطالب البيئة وتخفي بقايا العفوية أو الذات الحقيقية.

ووجود الذات الزائفة هو دفاع ضد الخوف من الإبادة للذات الحقيقية، وتصبح "ذات راعية" Ceretaken self لدى بعض الأطفال، ومن ثم فإن القيام بهذه الوظائف غير المنجزة بواسطة الأم لدى بعض الأطفال، بوجه خاص الموهوبين بإمكانيات عقلية، تصبح النفس "ذات راعية" تتصارع مع النفس/ الجسم.

ويمكن بلورة ما سبق وبشأن الذات الزائفة قصة قصيرة للكاتب الإسباني "رافاييل نوبو" والتي وصفت بأنها من أعنف ما جاء في الأدب الأسباني ... وهي كما يلي:

"لم أسامح أخي التوأم الذي هجرني لست دقائق في بطن أمي، وتركني هناك، وحيدًا، مذعورًا في الظلام، عائمًا كرائد فضاء في بطن أمي، مستمعًا إلى القبلات تنهمر عليه من الجانب الآخر ...

كانت تلك أطول ست دقائق في حياتي، وهي التي حددت في النهاية أن أخي سيكون البكر والمفضل لأمي.

منذ ذلك الحين صرت أسبق أخي من كل الأماكن: من الغرفة، من البيت، من المدرسة، من السينما، مع أن ذلك كان يكلفني عدم مشاهدة نهاية الفيلم.

وفي يوم من الأيام التهيت فخرج أخي قبلي إلى الشارع، وبينما كان ينظر إلي بابتسامته الوديعة، دهسته سيارة، أتذكر أن والدتي، لدى سماعها صوت الضربة، ركضت من المنزل ومرت من أمامي، ذراعاها كانت ممدوتان نحو جثة أخي لكنها تصرخ باسمي، حتى هذه اللحظة لم أصحح لها خطأها أبدًا ... (مت أنا ... وعاش أخي)".

بينما تعكس القصة التالية كيف أن الحب سواء من الأم أو من القائم علي رعاية وتربية الطفل يفجر الطاقات الكامنة داخل الإنسان بشكل متميز وسوي كما يلي:

"وقفت معلمة الصف الخامس ذات يوم وألقت علي التلاميذ جملة: إنني أحبكم جميعاً وهي تستثني في نفسها تلميذ يدي (تيدي)!.. فملابسه دائماً شديدة الاتساخ، مستواه الدراسي متدن جدا ومنطوي علي نفسه، وهذا الحكم الجائر منها كان بناء علي ما لاحظته خلال العام فهو لا يلعب مع الأطفال وملابسه متسخة .. ودائما يحتاج إلي الحمام .... وانه كئيب لدرجة أنها كانت تجد متعة في تصحيح أوراقه بقلم أحمر، لتضع عليها علامات (X) بخط عريض وتكتب عبارة راسب في الأعلي..... ذات يوم طُلب منها مراجعة السجلات الدراسية السابقة لكل تلميذ وبينما كانت تراجع ملف (تيدي) فؤجئت بشيء ما!....

لقد كتب عنه معلم الصف الأول: تيدي طفل ذكي موهوب يؤدي عمله بعناية وبطريقة منظمة.

ومعلم الصف الثاني: تيدي تلميذ نجيب ومحبوب لدي زملائه ولكنه منزعج بسبب إصابة أمه بمرض السرطان...

أما معلم الصف الثالث كتب: لقد كان لوفاة أمه وقع صعب عليه لقد بذل أقصي ما يملك من جهود لكن والده لم يكن مهتما به وإن الحياة في منزله سرعان ما ستؤثر عليه إن لم تتخذ بعض الإجراءات...

بينما كتب معلم الصف الرابع: تيدي تلميذ منطو علي نفسه لا يبدي الرغبة في الدراسة وليس لديه أصدقاء وينام أثناء الدرس... هنا ادركت المعلمة "تومسون" المشكلة، وشعرت بالخجل من نفسها!

وقد تأزم موقفها عندما أحضر التلاميذ هدايا عيد الميلاد لها ملفوفة بأشرطة جميلة... ما عدا الطالب تيدي كانت هديته ملفوفة بكيس مأخوذ من أكياس البقالة.. تألمت السيدة تومسون وهي تفتح هدية تيدي وضحك التلاميذ علي هديته وهي عقد مؤلف من ماسات ناقصة الاحجار وقارورة عطر ليس فيها إلا الربع...

ولكن كف التلاميذ عن الضحك عندما عبرت المعلمة عن إعجابها بجمال العقد والعطر وشكرته بحرارة، وارتدت العقد ووضعت شيئا من ذلك العطر علي ملابسها.... ويومها لم يذهب تيدي بعد الدراسة إلي منزله مباشرة بل انتظر ليقابلها وقال: إن رائحتك اليوم مثل رائحة أمي!

عندها انفجرت المعلمة بالبكاء لأن تيدي أحضر لها زجاجة العطر التي كانت أمه تستعملها ووجد في معلمته رائحة أمه الراحلة!!

منذ ذلك اليوم أولت اهتماماً خاصا به وبدأ عقله يستعيد نشاطه وبنهاية السنة أصبح تيدي أكثر التلاميذ تميزا في الفصل ثم وجدت المعلمة مذكرة عند بابها للتلميذ تيدي كتب يقول: أنها أفضل معلمة قابلها في حياته فردت عليه أنت من علمني كيف أكون معلمة جيدة...

بعد عدة سنوات فؤجئت هذه المعلمة بتليقها دعوة من كلية الطب لحضور حفل تخرج الدفعة في ذلك العام موقعة باسم ابنك تيدي... فحضرت وهي ترتدي ذات العقد وتفوح منها رائحة ذات العطر...

الأم الميتة

"دراسة في التحليل النفسي – أندريه جرين"

هل تعلم من هو تيدي؟

تيدي ستودارد هو أشهر طبيب بالعالم ومالك مركز (ستودارد) لعلاج السرطان ... وهو المرض الذي ماتت به أمه ... والتي ما زالت حيه بداخله".

فالورقة البحثية والمعنونة بـــ "الأم الميتة" ما هي إلا مساهمة قيمة في الأدبيات المتعلقة بمقاربات التحليل النفسي، والعلاج النفسي للحزن والخسارة والاكتئاب.